أزمة المعجمية العربية والطريق إلى معجم عربي معاصر وشامل

أ. عبد المنعم أحمد محمد الشاذلي

مقدمة

إنَّ أوَّلَ ما نعرِّج إليه هنا، افتتاحاً لمقالنا هذا، هو النظر في كلمة (مُعجم) لنذكر أن الفعل منها هو (أعجمَ) وأن الهمزة التي في أول الفعل هي همزة السلب والإزالة، لأن العُجمةَ تضادُّ الإبانةَ واللَّبْسَ، فجاءت الهمزة لإزالة هذه العُجمة ونَفْيها. ومن ذلك قولهم: الضاد المعجمة والشين المعجمة، بمعنى الضاد المنقوطة التي زال اللبس بينها وبين الحرف الشبيه بها في الرسم وهو الصاد، وكذا القول في الشين، لأن نَقْطَها أزال اللبس والشبه بينها وبين شبيهها في الرسم وهو حرف السين. فالكتاب المعجم هو الكتاب المبيِّن لما يحوي المفسِّرُ له، واصُطلح للقواميس، لأنها تبحث في بيان الكلمات وتفسيرها

هذا، وتُعنَى هذه الورقة بالمعجمية العربية أو صناعة المعاجم العربية (Arabic Lexicography)، أزمةً ومُشْكلاً وبحثاً للحلّ. فالصناعة المعجمية هي التي تُعْنَى بتأليف المعاجم والقواميس، بجمع كلماتها وتعريفها وتصنيفها، ويُعنَى هذا الفرع كذلك بالشرح المصور (Illustrations)، وبإعطاء أمثلة وتعبيرات للكلمة، لتوضيح معانيها ودلالاتها في السياقات اللغوية المختلفة. وتقوم هذه الصناعة على علم جليل هو علم المعاجم (Lexicology)، وهو الذي يهتم بدراسة الكلمات وطبيعتها ومعناها، وعناصرها، والعلاقات بينها (العلاقات الدلالية)

ملامح أزمة المعجمة العربية:

لقد كان العرب من أسبق الأمم إلى التأليف المعجمي أو إلى المعجمية، فالثورة العلمية التي أوجدها اتصال العرب بغيرهم من أمم الأرض كالفرس والروم وغيرهم، مما صحبه حركة نشطة في التأليف في شتى العلوم، فيما عرفه العالَمُ بالحضارة الإسلامية. وصناعة المعاجم تُعَدُّ إحدى عجائب التأليف العربي. ذلك أنها قامت في وقتٍ قلّت فيه وسائل الاتصال وانعدمت فيه قواعد البيانات التي عرفتها عصورنا اللاحقة. وأكثر من ذلك، أن المعجمية العربية قد قامت على جهود فردية وحسب. وما هي إلا نظرةٌ في المؤلفات المعجمية العربية حتى تدرك أنها تقف شاهداً على براعة العرب في هذا الفنِّ.

ولقد انطوى التراث العربي على كثير من التجارب العلمية والبحثية المعجمية، وتفننوا في ذلك، من حيث الموضوعات والمذاهب والمناهج، فكتبوا معاجم للألفاظ ومعاجم للبلدان ومعاجم للأدباء، ومعاجم تاريخية ومعاجم للمترادفات، ومعاجم للأضداد، ومعاجم للأعلام، ومعاجم للموضوعات الخاصة، كالنبات والحيوان، وهلمَّ جرًّا.

ويعد معجم تاج اللغة وصحاح العربية أهم معجم وصل إلينا من أسلافنا، وضعه العلامة أبو نصر إسماعيل بن نصر بن حماد الجوهري الفارابي المعروف بالجوهري، وقد بذل فيه مجهوداً رائعاً وعالج فيه كثيراً من القضايا النحوية، بعد أن ابتكر فيه منهجه الخاص به والقائم على ترتيب حروف الهجاء، مخالفاً سلفه، الخليل بن أحمد في معجمه (العين)، وقد رتبه على مخارج الرحوف. ويبدو أن معجم الصحاح، لدقته ونفاسته، الوحيد الذي حاز اهتمام العلماء فجرت محاولات عديدة للام فيه واختصاره، على نحو ما صنع الرازي، في كتابه (مختار الصحاح)، وعلى نحو ما صنع الأخوان نديم وأسامة مرعشلي.

ثم كان لسان العرب لابن منظور، مفيدا من منهج الجوهري، ومتوسعاً في آراء العلماء.

لكنَّ هذه المعاجم المعروفة – صحاح الجوهري ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز أبادي،

ومخصَّص ابن سِيْدَهْ، وغيرها- كانت تمثل ثَروةً علمية وثقافةً لغوية ومراجعَ معرفيةً مسعفةً وكافيةً أو كالكافية في أزمانها. ذلك أنها استوعبت علوم عصرها ومعارفه، وعبَّرت وأعربت عن حاجات عصورها المختلفة، إذ لبَّت حاجات أهلها النفسية والعقلية والثقافية والاجتماعية أفضل تلبية. فاللغة – كلُّ لغة - إنما تعبِّرُ عن حاجات متحدثيها النفسية والاجتماعية. ولذلك جاءت طبيعة التأليف العربي القديم، تعبيراً وتناولاً، متسقةً مع محتوى هذه المعاجم، وملتئمةً معها.

فهل يصح، بعدُ، أن تعبر هذه المعاجم المأثورة عن حاجات عصرنا الحديث، وقد اختلفت ثقافتنا وأوضاعنا الاجتماعية، وتدفقت المعارف سيولاً جارفةً، وتداخلت المفاهيم بين الأمم المختلفة؟

فأوْلَى ملامح أزمة المعجمية العربية هي أننا لم نعد نمتلك معاجمَ تعبِّرُ عن حاجاتنا العصرية، النفسية منها والعقلية والاجتماعية والثقافية. فمازلنا نرجع إلى الجوهري في زمانه وإلى ابن منظور، لنتعاطى اللغة التي عبرت عن عصورهم، ولم تعبِّر عن عصورنا، فخرجنا من معاجمهم ومحصولنا همهماتٌ وأشعارٌ غريباتٌ مجزَّاءت، ونحن نشعر في قرارة أنفسنا بأننا لم نبلغ ما نريد

أليس غريباً ألا نزالَ نرجعُ إلى صحاح الجوهري ولسان العرب والقاموس المحيط، على اعتبار أنها المعاجم الشاملة والكاملة، على حين أنها لا تمثل لغتنا الفصحية المعاصرة؟ لماذا ضعفت العبقرية العربية عن متابعة النشاط المعجمي، الذي بدأته باهرةً في ظروف حياتية بدائية ولكنها عدات فتقاصرت عنه في زمن الحاسوب والتقانة والانترنت، الذي لا نجد فيه اليوم من نشاطنا المعجمي إلا هذا التراث القديم مصوراً بي دي إف (pdf)؟

ملامح أزمة المعجمية العربية:

اتسمت المعاجم العربية المعروفة كصِحاح الجوهري، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط بمظاهر تجمع بينها جميعاً، نذكر منها:

١. العمل الفردي:

مع أنَّ العمل الفردي في المعجم العربي كان عملاً باهراً ومثيراً للإعجاب في تلك الأزمن القديمة على نحو ما قررنا آنفاً، إلا أنَّ هذه الصفة ارتدَّت لتكونَ نقيصةً في زمن المؤسسات البحثية الكبيرة. والحقُّ أنَّ العمل الفردي بالغاً ما بلغ من الجمال والحرص، إلا أنَّ النقصَ والسَّهْوَ والغفلةَ والتقصير، كلُّ أولئك يظلُّ صفةً ملازمةً له على كل حال. وذلك أمر لا بدَّ منه بطبيعة الحال، مقارنةً مع العمل الجماعي والمؤسسيِّ الذي تقوم عليه الصناعة المعجمية اليوم في كل أنحاء الدنيا.

ولقد رصد البروفسير عبد الله الطيب رحمه الله في رسالته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن في العام ١٩٥٠، بعنوان (أبو العلاء المعري شاعراً) رصد في ذيل رسالته هذه أكثر من عشر كلمة وصيغ كلمات [١] استخدمها أبو العلاء المعري في ديوانه (اللزوميات) ولكنها لم ترد في المعاجم العربية الأصيلة، من أمثال (آرا) بمعنى (نَعَمْ)، و(عُنْظُبة) بمعنى أنثى نوع من الجراد أصفر ضخم، وككلمة (بُقَّارى) بمعنى لعبة للأطفال يصنعون فيها أكواماً صغيرةً من الرمل ويُخفُون فيها شيئاً ثم يبدؤون في البحث عنه. وأبو العلاء المعري كان فلتةً في اللغة واستخدامها، على نحو ما نعرف

فهذا يدلك من أيسر طريق على أنَّ صفة النقص والتقصير، مع الجهد الكبير، صفةٌ لا بد ملازمةٌ للعمل الفردي، في نشاط كبير كصناعة المعاجم

٢. التنافس بين العلماء:

على ما اتهمت به المعجمية العربية من العمل الفردي، فلا يمكننا أن نَغُضَّ الطرْفَ عن اتهام بعض مصادر اللغة وجامعيها بالغرض والهوى، وهو أمرٌ مذكور في ثنايا كتب اللغة. فطبيعة الحياة العلمية إبَّان عصور التأليف الزاهرة منذ عصر بني أمية ومروراً بعصر بني العباس التي كان طبعها التنافس الشديد بين العلماء والكتّاب، فكلهم يريد أن يكون له أتباعه وأنصاره، وكلهم يبغي أن يفوز برضا خليفة أو أمير، ليَحظَى بنواله وإكرمه. وثمة قصتان معروفتان في هذا الشأن. أولاهما تُروَى عن عالم اللغة والنحوي أبي العباس المبرِّد، إذ يررون أنَّ بعض معاصريه تذاكروا مرةً التقطيع العَرُوضي لبيت طرفة بن العبد المعروف:

أبا مُنذر أفنيتَ فاستبقِ بعضَنا
حنانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بَعْضِ

فبلغوا في التقطيع العروضي قولهم (قِ بَعْضنا)، فاقترح أحدهم أن يصيغوا لفظةً من هذا التقطيع هي (القِبَعْض) ليأتوا بها أبا العباس المبرِّد يسألونه عنها. فأتَوْهُ فقال له صاحبُهم: أيدك الله تعالى، ما القِبَعْضُ عند العرب؟ فقال: هو القطن، وفي ذلك يقول الشاعر، يصف ناقته: (كأنَّ سنامَها حُشِيَ القِبَعْضا). فقال الرجل

لأصحابه: ترون الجواب والشاهد، فإن كان صحيحاً فهو عجيبٌ، وإن كان مُختَلقاً فهو أعجب) [٢]

والقصة الثانية، تُروَى عن أحد أعلام اللغة والشعر والتفسير، وهو أبو عمرو بن العلاء البصري، إذ ذَكَرُوا أنه سئل: هل وَضَعْت أو نحلت شيئاً من الشعر، فقال: لا والله إلا بيتاً واحداً في شعر الأعشى، وأستغفر الله منه، هو

وأنكرتْني وما كان الذي نَكرَت
مِنَ الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعا

والملحظ هنا، ليس في القصتين بادي الأمر، بل في الاتهام الذي توجه إلى كلٍّ من العالِمَيْن الجليلين؛ إذ لماذا أمكنَ سؤالهما؟ بمعنى لماذا كانت هناك إمكانية سؤال المبرد، ومن قبله أبي العلاء عما سُئلا عنه؟ وهل يعني ذلك إلا أنَّ الاتهام بالوضع والنحل للعلماء كان عصرئذٍ أمراً شائعاً معروفاً

٣. اعتماد الشعر في الاستشهاد:

إن قضية الاستشهاد بالشعر من القضايا الكبيرة التي شغلت التأليف العربي لغةً وأدباً ونقداً منذ زمان بعيد. وقد دخل الشعر كل أنواع التصنيف والتأليف، حتى دخل كتب التفسير من أوسع الأبواب. ومع أن الشعر فنٌّ عالميٌّ راقٍ، ومع أنَّ العرب من أكثر أمم الأرض المعروفة تعاطياً للشعر، وقد افتنوا فيه في كل مرحل حياتهم، وبرعوا فيه أيما براعة، حتى إنَّ كاتباً مثقفاً وموضوعياً، ربما ضرب به المثل في سعة الثقافة والتبحُّر في العلوم كالجاحظ قاربَ أن يَقْصُرَ مزيَّة الشعر الجيد على العرب دون غيرهم من الأمم، مع ذلك كله فإنَّ تعاطي الشعر بهذا القدر من التوسع والإكثار في أغلب أصناف التأليف العربي قديماً وحديثاً، مما يلفت النظر و ينبغي أن نقفَ عنده.

فأغلب المعاجم العربية تتوسع في إيراد الشعر استشهاداً واستئناساً. ولست أرى ذلك شيئاً حسناً، وربما عَدَدْتُهُ أدْخلَ في باب المثالب منه في باب المناقب. ذلك أن الشعر فنٌّ وشعورٌ يدفُقُ بلا حساب ولمحٌ وخواطر تتداعى إلى القلب تداعياً، وهي أشياءٌ أقربُ، إن ألمَّتْ، إلى التمرُّد والتأبِّي على قواعد التعبير وقوانين الكلام، سعياً لإحداث الأثر المطلوب. وقديماً تكلَّمَ النقادُ في (الضرورات) الشعرية (Poetic Licenses)، وهي ضروراتٌ تحملُ على تجاهل المعروف والمألوف في قواعد الكتابة والنحو والتعبير. وقد تبارى الكتاب والنقاد في تعريفها، ومن ثمَّ اختلفوا في درجات التجاوز عنها؛ ذلك في قضايا النحو ثم في القضايا اللغوية. وكتبُ النقدِ العربيِّ مليئة بهذا الذي نشير إليه ثم إن الاستشهاد بالبيت الفرد لأجل فهم مفردة من المفردة قد لا يكفي لفهمها؛ ذلك أن المفردةَ أحياناً قد تستجمع معناها وتستكمله من سياق الكلام في الجو العام للقصيدة، لا في البيت الفرّد منها، فكم من بيتٍ شعريٍّ قد جاء بعده الذي يليه ليكشف معناه ويبلغ به الشاعر غرضه من التعبير هذا ونحن نعلم أن الشاعر في وصفه لما يريد من المعاني ربما عمد إلى لفظةٍ غير التي تؤدي له المعنى من مترادفاتها، لا لشيءٍ إلا للإيحاء والجو النفسي الذي تضفيه هذه الكلمة ولا يجده في الكلمة الأصيلة التي تؤدي له المعنى الذي يريد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فكم من شاعر اضطره الوزن أو القافية إلى استخدام كلمة مرادفة للكلمة التي يريد. فهل كلمة (نأى) و(بعد) بمعنى واحدٍ، كما تقول معاجمنا القديمة؟ فهل هما مترادفتان في قول طرفة بن العبد:

فما لي أراني وابن عمي مالكاً
متى أدنُ منه ينأَ عنّي ويبعد

وواضح أنَّ مقابل الكلمة (أدنُ) لن يكون الكلمتين معاً (ينأَ) و(يبعد)؛ فأين هذا مثلاً من قول المتنبي، وإن كان ممَّن لم يستشهدوا بشعره، (لأنهم ختموا الاستشهاد بإبراهيم بن هرمة):

أنأيتُهُ فدنا، أدنيتُهُ فنأى
جمَّشتُهُ فنبا، قبَّلتُهُ فأبى

هذا، وإن ظاهرة الترادف ظلَّت عذراً يختبئُ وراءه كثير من علمائنا الأوائل للغة (وكثير من المعاصرين) يخفون وراءها حقيقة الاستخدام في السياق الصحيح. وصار هذا الأمر مسلَّماً به ومقبولاً حتى في تفسير القرآن الكريم. فالتفاسير القديمة تتعاطى الترادف حلاً لمعضلات التفسير وهروباً من التحديد، فالشك عندهم هو الريب، والريب هو الشك، وأولو الألباب عندهم هم أهل العقول في قول الله تعالى (كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ليدَّبروا آياتِه وليتذكَّرَ أولو الألباب) [٣]، وكأنَّ واو الجماعة في قوله (ليدبروا) من اهل التدبر إنما يتدبرون بغير عقل، وأنَّ العقل ميزة انفرد بها الذين بعدهم من أهل (التذكر). كما أنَّ الفعل (أتى) عندهم بمعنى (جاء)، و(جاء) بمعنى (أتى).

ففي لسان العرب، في باب (أتى): (الإتيانُ: المجيء، أتيتُهُ أتْياً، وأُتِيّاً، وأَتِيّاً وإتياناً، وإتيانةً، ومأتاةً: جِئتُهُ، قال الشاعر: فاحتَلْ لِنَفْسكِ قبل أتْيِ العسكرِ) [٤].

وأخطر ما الأمر أننا نستخدم هذه الجهود الفردية في عمل المعاجم والتي تقوم في حجتها اللغوية على الشعر أكثر ما تقوم، لنفهم بها كتاباً سماوياً خالداً يهدي إلى الرشد ويقوم الحياة ويسيرها، هو القرآن الكريم. فكتب التفسير للقرآن مليئة بالشعر الذي يتعاطى الترادف اللفظي ويستخدم ما له من رخص.

وهنا نذكر أن بعض المهتمين من المفكرين والعلماء بدأوا ما يمكن أن نسميه مشروعاً لدراسة معجمية جادة يمكن أن تفضي إلى مشروع معجم عربي شامل كامل يقوم على الأسس اللسانية والمعجمية المعاصرة، نذكر من هؤلاء – وهم بَعْدُ كثر- الدكتور أحمد الكبيسي، الذي قدم مجهوداً مقدراً وجديراً بالوقوق والتأمُّل، ويمكن أن نبنيَ على منهجيته التي اتبعها أو نعدِّلَ فيها أو ننطلق منها. فهو قد جعل يدرس الكلمة لا من المعجم ولكنه اعتمد نظرية السياق، وهي نظرية لسانية رفيعة، فهو يدرس الكلمة من استخدامها في سياقاتها المختلفة ليخرج بمعنىً لها مقبولٍ أو أدنى إلى القبول والمعقول، وذلك في برنامجه الشهير (الكلمة وأخواتها) [٥]. فالكلمة (أتى) عنده غير الكلمة (جاء) في قوله تعالى: (قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) [٦]، ليقرِّرَ أنَّ (أتى) تستخدم لما هو في طريقه إليك ولمَّا يصلْك، أو وصلَكَ ولكن لم يتم الغرض من وصوله، وأما (جاء) فقد وصلَكَ وتم الغرض من وصوله إليك. وعلى ذلك فيمكننا أن نفهم قول الله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) [٧] وقوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيَهم بغتةً فقد جاء أشراطها) [٨] فللساعة الإتيان لأنها لم تصل بعدُ، ولكن المجيء لأشراطها، لأنها قد وصلت، لأنَّ المجيء وصولٌ وصفوةُ القول هنا أنّ الاستشهاد بالشعر في الاستخدام اللغوي الجاري أمر يجب عدم الأخذ به في صناعة المعجم إلا في حالات نادرة حقاً، يتدارس بشأنها المختصون ليقرروا فيها.

فهذه بعض الهنات التي ينبغي تجاوزها في صناعتنا لمعاجمنا العربية. هذا، وإنَّ تفشِّي اللهجات العربية المحلية اليوم في بلادنا العربية (اللغات الدارجة)، وارتفاع أصواتها على مستوى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، وتراجع الفصاحة والبيان الأصيل في مظهر اللغة الفصحى ما هو إلا أثرٌ من آثار تخلف المعجمية العربية، وغِيابِ المعجم العربي المعاصر الشامل منذ أزمان المعجميين القدماء.

جهود علمية لتلافي الأزمة المعجمية العربية:

أول ما نشير إليه هنا بهذا الشأن هو عملُ المجامع العربية المعروفة. فهناك مجهودات جيدةٌ قامت بها مجامعنا العربية، كمجمع اللغة العربية في القاهرة وفي دمشق. ولكن هذه الأعمال والمجهودات ينقصها الكثير من التنسيق والسعة والتوحيد، بسبب القطرية الحديثة التي صارت كأنها بديل شرعي لتلك الفردانية التي اتسمت بها المعاجم القديمة. فنحن ما نزال في حاجة إلى منهجية موحدة تقوم على الأسس العلمية واللسانية الصحيحة المعتمدة اليوم في صناعة المعاجم في عالمنا المعاصر. ولستُ أشكُّ قطُّ في أن اهتمام الأمم المعاصرة اليوم بلغاتها هو السبب الأول والمهم في تقدمها وتطورها وغَلَبَتِها. ولذا نراهم يسارعون في بناء المراكز والمعاهد الثقافية لتدريس لغاتهم وثقافاتهم بالبلدان التي تكون لهم فيها سفارات أو بعثات دبلوماسية، ليكون هذا العمل اللغوي الثقافي جزءاً لا يتجزأ عن نشاطهم السياسي والدبلوماسي بتلك البلدان.

كما أن هناك مجهودات (فردية) كذلك في مجال المعجمية والألفاظ، مثل المجهود الذي قام به الدكتور علي محمود حجي الصراف في كتابه [٩] (الألفاظ المحدثة في المعاجم العربية المعاصرة)، جاء فيه بعمل جيد للغاية وحشد فيه قدراً كبيراً من الألفاظ التي دخلت المعاجم العربية المعاصرة، في مختلف مجالات العلوم الحديثة، مما يصح أن يؤخذ به في الاعتبار في معرض التفكير في المعجم الشامل الذي ننشده اليوم. ومراده بالمعاجم العربية المعاصرة هنا، هو أمثال المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمصطلحات العلمية والفنية (د. ضاحي عبد الباقي)، والمنجد في اللغة العربية المعاصرة.

كما أن هناك محاولة ممتازة جديرة بالوقوف عندها قام بها الأخوان نديم وأسامة مرعشلي؛ إذ أقدما على عمل جريءٍ ورائع، وهو أنهما قاما باعتماد معجم صحاح الجوهري فاختصراه من (الزوائد) التي رأياها غير جارية في الاستخدام، أو اكتفيا بالمعنى اللغوي الأصيل، ثم أقبلا يضيفان اللكلمات والعبارات المتعلقة بالكلمة المعنية ولكن في مجالات العلوم المختلفة، فاعتمدا مجالات الطب والهندسة والفلسفة وغيرها من المجالات، يأتيان بالكلمة مصطلحاً

ويشرحانها. وعندي أنها تجربة فريدة ورائعة. ومع روعة هذه الجهود الحديثة مضافةً إلى الجهود القديمة من النشاط المعجمي، إلا أنها جميعاً لا تمثِّل معجماً عربياً معاصراً شاملاً وكافياً، يمكن أن يسهم في دفع اللغة العربية ودفع الكتابة الجميلة بها ويساعد في نشر العربية على نطاق واسع. ذلك أنها محاولات ظلت تعاني من الفردية وتبعد عن طبيعة العمل المعجمي الجاد والكبير الذي تدعمه الدول، وتبعد كذلك عن المنهجية العلمية والمؤسسية التي تقوم عليها المعاجم المعاصرة لدى كل الأمم المتقدمة.

طبيعة المعجمية لدى اللغات الغربية المعاصرة (الجهود المؤسسية)

إن المعجمية المعاصرة اليوم تقوم على أسس علمية أصيلة قوامها البحث العلمي الدؤوب، في كل مجالات المعرفة قبل إدخالها المعجم المراد صناعته. كما أن هذه المعجمية تقوم على منهجية علمية مدروسة. وأبرز صفة لهذه المنهجية هي أن صناعة المعاجم قد صارت إلى مؤسسات كبيرة وعريقة تدعمها الدولة وتنفق عليها بما لا يقل عن إنفاقها على الدفاع والسلاح. ولذلك فالجهد المعجمي لدى الأمم المتقدمة اليوم على الجماعية وهذه المؤسسية

جهود غربية في المعجمية العربية جديرة بالنظر والتأمل

١/ معجم مد القاموس وعمل السيد/ إدوارد وليم لين فيه

تقوم المعجمية أو صناعة المعاجم لدى الأمم الأوربية اليوم على عمل المؤسسات الضخمة والراسخة والمتخصصة. فهذه المؤسسات كمؤسسة أكسفورد أو لونق مان (Longman) أو ويبستر (Webster) أو غيرها من المؤسسات المعجمية الغربية هي مؤسسات ضخمة تشرف عليها دولها وحكوماتها وتنفق عليها بما يكفي، وتشتمل على كثير من الدوائر والأقسام المتخصصة، ويتبع لها علماء عاملون في مختلف المجالات اللسانية واللغوية والتاريخية والعلمية وغيرها، حتى استقرت على عمل مركز ومنظَّم ومستقر. تصدر المعاجم الكبيرة الشاملة والكاملة التي لا تفوتها كلمة أو غيرها في مجال اللغة، ثم تصدر المعاجم الكبيرة المتخصصة في المجالات العلمية الأخرى، كالطب والهندسة والجيلوجيا والتقانة والفلك والبحار والزلازل وغيرها من المجالات. ثم يستمر علمها بمراقبة الكلمات الجديدة والمستحدثة في كل عام لتعاد هذه المعاجم على فترات معلومة وقد زِيدَتْ ونقِّحَتْ وجاءت أشمل وأكمل، لتفيد الدارسين والمختصين هذا، ومع تتابع الحركة الاستعمارية في القرن التاسع عشر، وبالتحديد في منطقة الشرق الأوسط وأفريقا، ومع تتابع حركة النهضة الأوربية وتمدد اللغات الأوربية، تنبهت بعض الدوائر العلمية إلى ضرورة إيجاد وشائج علمية لغوية تتصل بلغات الشرق الأوسط وإيجاد صلات علمية وثيقة مع علوم هذه اللغات. فتوجه النظر والتركيز إلى دراسة أديان الأمم السامية ولغاتها ومن بينها، الأمة العربية على اعتبار أنها نهضت بحضارة قوية سادت زماناً طويلاً، وأبقت أثرها في كل أمم الأرض التي ارتبطت بها على نحو يزيد أو يقل. ورامت الأمم الأوربية الناهضة عصرئذٍ أن تدرس لغات الشرق الأوسط وأن تجدَ لها وشائج لغوية مع الأمم العربية تتصل بلغاتها من طريق هذا الاستعمار. فتوجَّه الدرس منها إلى اللغات السامية. ومن أبرز الجهود التي ظهرت في هذا الشأن مثالان نذكرهما وفيهما غنية وكفاية لمرادنا هنا. ومع أنَّ هذيْنِ المثاليْنِ قد عالجا المعجمية في ثنائيتها، أي هما ثنائيا اللغة (عربي- إنجليزي) إلا أنهما قد أظهرا براعةً ظاهرةً في المعجمية العربية نفسها، ثم مع أنهما يمثلان عملاً فردياً إلا أنهما تأثرا حقاً بالطريقة المؤسسية الحديثة في صناعة المعاجم التي تقوم على العمل الجماعي.

المثال الأول: عمل الأستاذ المستشرق الإنجليزي/ إدوارد وليم لين (Edward William Lane)،

في معجمه الضخم (مد القاموس)، وهو معجم ثنائي اللغة/ من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية. ففي أواخر القرن التاسع عشر، وفي العام ١٨٩٢ فرغ السيد/ لين من صناعة معجمه الفريد في بابه والذي أسماه (مد القاموس) وهو معجم ضخم جداً يتألف من ثمانية مجلدات ضخمة (٣٠×٤٠) وقد صُممت الصفحة من ثلاثة أعمدة كبيرة مع كتابة دقيقة. وقد ظهرت الطبعة الأولى له في العام ١٩٦٨ والسيد/ لين (١٨٠١-١٨٧٦) مستشرق ومؤرخ إنجليزي هاجر في القرن التاسع عشر إلى مصر ودرس بها اللغة العربية وأجادها وشاء أن يكتب معجمه المعروف ليصل لغته الإنجليزية باللغة العربية ويفيد

الدارسين ممن لهم صلة بكلتا اللغتين. ويُذكر أن لين قد أمضى أكثَر من ٣٠ عاما في تأْليف هذا المُعجَم الضّخْم، الذي لا يَزال مُنذ تأْليفه في القَرْن التّاسع عشر، أوثَق المَعاجم العرَبيّة- الإنكليزيّة وأوْسَعها. وتُعدُّ مادتُه التي جمعها ورتَّبها مَصدراً بالغ الأهمية لدراسة العربية على المُستَوى العالَميّ. وقبل أن يكمل هذا المعجم، بعد أن قارب الفراغ منه، وافته المنية المحتومة، فيُذْكَرُ أن ابن أختٍ له هو من تولى إتمام عمله وعلى ذات المنهج الذي رسمه.

هذا، وإمعاناً من السيد/ لين في التواصل مع الحضارة الشرقية، فقد ترجم كتاب ألف ليلة وليلة ونشره فيما بين (١٩٤٩ و١٩٥٤). كما أنه ترجم أجزاءً من القرآن الكريم، وكذلك كتب كتاباً عن المجتمع المصري الذي كان به معجباً، ذكر فيه أبرز ما لفت نظره من الملامح.

بعض خصائص عمل السيد/ وليم إدوارد لين في معجمه (مد القاموس):

- كان السيد لين واسع الاطلاع على كتب اللغة لدى علماء اللغة العرب القدماء من أمثال الخليل والجوهري وابن منظور وابن فارس وابن دريد وابن الأعرابي وأبي علي الفارسي، وغيرهم كثير. وقد وضع في مقدمة كتابه قائمة طويلة ومفصلة بأسماء العلماء الذين رجع إليهم مع بيان المصادر التي أخذ منها
- أفاد السيد/ لين من طريقة العرب ومن المنهجية الحديثة في وضع المعاجم، فمزج بينهما في وضعه لمعجمه. فهو يورد الكلمة من أصلها المعجمي ثم يمضي في إيراد شتى صور استخداماتها اللغوية في السياقات المختلفة. وهو في هذا ينتهج نهجاً غايةً في الدقة والتتبع، فهو لا يترك للكلمة مجالاً معروفاً من مجالات استخدامها إلا طرقه وبيَّن ترجمته بالإنجليزية، وأحياناً يذكر أكثر من ترجمة واحدة.
- يتابع السيد/ لين في طريقته الطريقةَ العربية في صناعة المعجم فهو يورد أحياناً بيتاً أو أبياتاً شعرية تتصل بالكلمة محل الدراسة، ثم يقبل على ترجمة البيت أو الأبيات. ولكن الملاحظ هنا أنَّ لين لا يتوسع في إيراد الشواهد الشعرية توسُّع المعاجم العربية. بل يميل ميلاً واضحاً إلى الاهتمام بالعبارات المشهورة أو بالعبارات الاصطلاحية (Idioms)، وكذا الآيات القرانية والأحاديث المتعلقة بالكلمة محل البحث ثم يُقبل على ترجمتها. فهو مثلاً عندما تناول الحرف (إذا)، وقف فيه وقفة طويلة متأنية بلغت صفحتين ومع ذلك لم يورد من الشعر إلا أربعة أبيات، ولكنه أكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم جداً، مثل قول الله تعالى (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) ترجمها بقوله: (And if an evil befall them ﴿i.e. for sins which they committed، then they despair)) [٩]. ولا ينسى لين هنا أن يطرق المسألة الزنبورية المعروفة، فيقول: (تقول العرب: قد كنت أظن أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها)، ويذكر القصة كاملةً بين سيبويه والكسائي، وما ذكر من رشوة الأعراب الذين جيء بهم ليساندوا قول الكسائي، لتأتي ترجمته هكذا (I used to think that the scorpion was more vehement in stinging than the hornet، and lo، he is as vehement as she) [١٠]
- أغلب ترجمات لين للعبارات والشواهد بيانية شارحة وحسب، فهو لا يورد الترجمة على نحو إبداعيٍّ، ربما لأنه منشغل بالكتابة المعجمية من حيث هي، فالترجمة الإبداعية ليست موضوع صناعة المعاجم، بل موضوعها البيان والشرح والتفسير؛ كترجمته مثلاً لقولهم: (جاءنا فلانٌ فلم يأتنا بِهلَّةٍ ولا بِلَّة)، في معرض تناوله للكلمة (بَلْ)، بقوله: (Such a one came to us and did not bring us anything to rejoice us nor the least sprinkling of good) [١١]، فهذا منه لا يعدو أن يكون شرحاً مسترسلاً يبتغي به بيان المعنى، يبعد عن حاقِ الإبداع والفن، ولكنه أحسن الشرح والتفسير، وهو مراده. وكترجمته لقولهم: (ما أحسن بِلَّةَ لسانه)، بقوله: (How good is the fluency of his tongue)
- صَنَعَ لين معجمه على نحو بارع جداً، فهو يورد الكتابة العربية كلمات وشواهدَ ويضبط جميع حروف الكلمات بالشكل، على نحو غايةٍ في الدقَّةِ

المثال الثاني: عَمَلُ الأستاذ الألماني هانز فير (Hans Wehr)

في معجمه الذي أسماه (معجم اللغة العربية المكتوبة المعاصرة) (A Dictionary of Modern Written Arabic)، وهو معجم في مجلد واحد،

وهو كذلك معجم ثنائي اللغة (عربي- إنجليزي)، وهو نسخة منقحة ومزيدة من من معجمه الذي ألفه قبله (عربي - ألماني)، وكان قد نشره لأول مرة عام ١٩٦١. وكان هذا العالم أستاذاً للغة العربية في إحدى جامعات ألمانيا.

بعض خصائص عمل السيد / هانز فير في معجمه

- الكتابة الصوتية للكلمة العربية بالحرف اللاتيني (Transcription)، مبتدئاً بأصل الكلمة المجرد من أحرف الزيادة، شأن المعاجم العربية في ذلك
- إيراد ترجمات معاني الكلمة في تصريفاتها المختلفة وبصور زيادة الأحرف المختلفة فيها. فكلمة (ثَنَى) مثلاً، يأتي بترجمات مختلفات لصورها (ثنَّى)، و(أثْنَى)، و(تثَّنى)، و(انثنى)، و(استثنى) [١٢]، ولا يزال يأتي في كل صورة من هذه الصور بسياقات استخدامها المختلفة يترجمها، مثل (انثنى من)، و(انثنى عن)، و(انثنى إلى). كما أنه لا ينسى قطُّ ترجمة التعبيرات المعروفة والشائعة لصورة الكلمة، فهو يترجم عباراتٍ أمثال: ثنى عِنانَ فرسه، وأثنى عليه عاطرَ الثناء، وفي تلك الأثناء، وفي ثنايا نفسه، وفي ثنايا الكتب، وبين ثنايا، وطلَّاع الثنايا (one with high-flung aspiration) [١٣]
- اهتمَّ كثيراً على العبارات الاصطلاحية العربية مثل (بلغ السيل الزبى)، ومثل (الضرورات تبيح المحظورات) و(للضرورة أحكام) (Necessity knows no law) [١٤]
- اهتم كثيراً بالاستخدام المحلي للعبارات، فهو يبين لك أن هذه اللفظة مستخدمة في بلاد الشام مثلاً أو مصر، وهلم جراً
- ابتعد أشد الابتعاد عن اللغات المهجورة، لأنَّ اهتمامه منصبٌّ أصلاً على اللغة العربية المعاصرة
- أبرز ثقافية موسوعية بالألفاظ والتعابير العربية المتعلقة بالثقافة الإسلامية والدينية وبالتاريخ الإسلامي، من أسماء الفرق والنحل والمذاهب والمدن القديمة
- مع اهتمامه بالثقافة العربية القديمة، إلا أنه لم ينسَ أن يدرج في معجمه هذا مصطلحات الحضارة الحديثة، ما وسعه الأمر.

هذا، وهناك دراسات وأعمال علمية أخرى لغير هذين العالمين في مجال المعجمية، مما يضيق المكان هنا عن إيراده. والحقُّ أنَّ للغربيين أيادٍ لا تُجحَدُ في دراسات اللغة العربية في شتى علومها ومجالاتها، ليس أقلها ما كتب السير/ وليم رايت (William Wright) عن النحو العربي، إذ كتب كتابه المعروف [١٥]: (في نحو اللغة العربية) (A Grammar of the Arabic Language). وهو كتاب آية في بابه، من حيث المنهجية العلمية والترتيب، وقد طبع بين سنة ١٨٥٩ وسنة ١٩٧٥، حوالي أكثر من عشر مرات.

فهذه النماذج للأعمال المعجمية ذات الصلة باللغة العربية والدفع بها للتواصل مع الأمم الأخرى عبر لغاتها، مع أنها نماذج فردية إلا أنها نماذج مشرفة بحقٍّ ومغنية في بابها وكافية لما كتبت له من الأغراض والأهداف، وذلك لسببين:

الأول: هو أن هذين النموذجين في العمل المعجمي، قد كان ممولَّين ومدعمومين من الحكومات والدول، فالسيد/ لين كانت تدعمه في هذا المشروع حكومته

والثاني: هو أن كلا منهما انطلق من منهجيةٍ دقيقةٍ أخذت بمناهج وضع المعاجم وترتيبها المعمول بها اليوم في المؤسسات الغربية.

هذا، ومع أنَّ أمر انتشار اللغة، أي لغة، واستخدامها على نطاق عالميٍّ، يتوقف على عوامل حضارية ونفسية واجتماعية أخرى، لا يتسع المقام للخوض فيها الآن، إلا أن المعجم المعاصر الموحد الشامل في بابه يُعَدُّ أحد أهم ركائز نشر اللغة وتطورها في كل زمان وفي كل مكان، وأحد أهم تطور الأمة الناطقة بهذه اللغة نفسها.

وعلى ما قدمنا فنحن نعاني أزمةً ماثلةً في أمر المعجمية، فمازلنا يعوزنا معجم عربي شامل كامل يستوعب الكلمة في استخدماتها العصرية المختلفة، ويتوفر على التعابير الاصطلاحية المستخدمة اليوم، ويفصل في شأن الاستخدام اللغوي والتعبيري في سائر نواحي المعرفة والحياة، على نحوٍ كافٍ.

والطريق إلى ذلك هو المبادرة إلى هذا المشروع الضخم تشترك فيه الحكومات العربية جميعها، عن طريق جامعة الدول العربية، وتشترك فيه المجامع اللغوية العاملة في كل البلدان العربية

توصيات الدراسة :

١. اعتماد العمل الجماعي والمؤسسي لصناعة معجم عربي للغة العربية شامل وكافٍ وذلك بتنسيق جهود العلماء والمفكرين والباحثين.

٢. بذل الجهد لجمع كل المادة المفرقة والمكتوبة عن المفردات والألفاظ والتعابير قديماً وحديثاً، وإعادة درسها وترتيبها في معجم عربيٍّ شامل وكامل

٣. إنشاء صندوق عربي بإشراف جامعة الدول العربية (ويمكن أن تكون دولة الإمارات دولةَ المقرّ)، يتبع لهيئة المعجمية العربية

٤. إنشاء جائزة عربية كبير لعمل معجمي متخصص قائم على الجهود المعاصرة المجمعية والفردية ومفيداً من الدراسات اللغوية القديمة في هذا المضمار ومن التجارب الأوربية الحديثة في صناعة المعجم. ولا بأس، مثلاً، من أن يقتصر مجال الجائزة على حرف واحد من حروف المعجم

٥. إلزام الجامعات العربية بتخصيص مقررات دراسية معجمية قائمة على مواصفات ومعايير ومناهج متفق عليها، يقترحها العلماء معجميون ومجمعيون لتدرس في أقسام اللغة العربية وكلياتها ومعاهدها بالوطن العربي

٦. النظر في المبادرات والدراسات المعاصرة التي جعلت تظهر في العصر الحديث، واعتمادها أساساً (لبناء) معجم عربي معاصر واسع وشامل وكاف في بابه، على نحو ما تعرف به الآن المعاجم الكبيرة الشاملة في اللغات المعاصرة، كاللغات الأوروبية الحديثة، مثل أعمال مجامع اللغة العربية بالبلدان العربية، ومبادرة الأخوين مرعشلي والدكتور/ علي محمود حجي الصراف، ومؤكد هناك مجهودات ومبادرات رائعة كذلك لم نوردها هنا

٧. إنشاء أقسام متكاملة ومتخصصة في عمل المعاجم داخل الجامعات والمعاهد العربية بالوطن العربي، على أن تكون مميزة من بين جميع أقسام الجامعة وكلياتها، ومرغَّباً فيها، وتكون بتمويل خاص من الصندوق العربي المعجمي المقترح أو من جامعة الدول العربية. وتموِّلُ الجامعة العربية أو الصندوق العربي المعجمي المنحَ والدراسات في هذا الشأن، وتشجع الطلاب والباحثين والدارسين للذهاب للدراسة في البلدان ذات التجارب الرائدة في صناعة المعاجم

٨. المبادرة بإنشاء موقع إلكترونيٍّ أو موقعين إلكترونيين على شاكلة موقع (معجم المعاني) على الشبكة الدولة، ليكون أحدهما، مثلاً، خاصاً بالمجامع العربية والعاملين فيها من الباحثين والمهتمين الأكاديميين. ويكون الثاني عامًّاً لكل المهتمين من الدارسين والمدرسين ليُودع هؤلاء وأولئك مشاركاتهم البحثية وملاحظاتهم. على أن توضع شروطٌ بعينها للمشاركة، مثل أن تكون المساهمة العلمية عربيةً فصيحة بعيدةً عن اللكنات واللهجات المحلية الدارجة ولا بأس ببيان الاستخدام العربي الفصيح في الإقليم المعيَّن (مغاربي، شاميّ، مصريّ، سودانيّ) وأن يكون لهذا الاستخدام وجْهٌ قويٌّ في اللغة، مشفوعاً ما أمكن بالشواهد الفصيحة، بعيداً عن الشعر. وفائدة مثل هذه المواقع أنها تشرك أكبر قدر ممكن من الباحثين وأهل الشأن، ويفيد جداً في تأسيس المعجم الذي نبغي

المراجع والمصادر:

١. أبو العلاء المعري شاعراً، عبد الله الطيب، رسالة دكتورة مخطوطة باللغة الإنجليزية، ترجمها إلى العربية الأستاذ/ عبد المنعم أحمد الشاذلي، ٢٠١٠، (تحت الطبع)

٢. معجم الأدباء ١٣٨/٧

٣. القرآن الكريم، الآية (٢٩) من سورة (ص)

٤. لسان العرب، ص ٢١، ط دار المعارف

٥. برنامج (الكلمة وأخواتها)، للدكتور/ أحمد الكبيسي

٦. قرآن كريم، الآية ١٢٩، من سورة الأعراف

٧. قرآن كريم الآية (١) من سورة النحل

٨. قرآن كريم، الآية (١٨) من سورة محمد

٩. انظر (الألفاظ المحدثة في المعاجم العربية المعاصرة)، د. علي محمود حجي الصراف

١٠. مدُّ القاموس، ص ٤٠، الجزء الأول، المستشرق والمؤرخ إدوارد وليم لين، ط. ١٩٦٨

١١. نفسه.

١٢. نفسه ص ١٠

١٣. معجم اللغة العربية المعاصرة، هانز فير، ص ١٠٧

١٤. نفسه

١٥. نفسه ص ٥٣٨

١٦. (في نحو اللغة العربية) (A Grammar of the Arabic Language)- للسير/ وليم رايت، ط جامعة كيمبردج، طبعة ١٩٣٢